

مساهمة معرفية ومنهجية في تعميق الحوار حول سيميائيات الثقافة في المغرب (2)، في عمق العلاقة الرابطة بين الفرد وعلامات النسق الثقافي الذي ينتمي إليه هوية وتاريخا. إن التفكير في النسق الثقافي “الممكن الواقعي” في هذا الذي يجب التفكير فيه، حفر في طبقات نسق المواضع والامتثال لمنطق المعنى المشترك الذي يتحول إلى لاشعور ثقافي يوجه أفراد الكلية الاجتماعية ويملي عليهم نمط الوجود الذي يتوجب عليهم ترهينه وتحقيقه في الزمان والمكان، فالمعنى المشترك بهذا المعنى هو لاشعور النسق الثقافي الذي يتحول في سلطة، تؤسس شراع الذوق والقيم، لتسليط الضوء على تداخل الثقافي واللغوي في التجربة الإنسانية لاكتشاف أن استعمال الفرد لعلامات الثقافة التي ينتمي إليها، استعمال يمر عبر مصفاة “التسنيين الثقافي” الذي يستثمر العلامات بمحتوى قيم الثقافة التي ينتمي إليها، فكل لغة كما تقول –شوشانا فيلمان– تملي على مستعملها بداياتها ومحرماتها (5) ومن تم فالفرد ككائن اجتماعي لا يملك إلا إمكانات محدودة في طرائق استعماله لعلامات اللغة الطبيعية أثناء تواصله الشفوي أو المكتوب أو المصور (صورة). وهو ما يجعل الفرد لا يستطيع أن يلجأ إلا إلى اختيارات محدودة ومستثمرة قبليا بمضامين الثقافة التي ينتمي إليها. وقبل أن تحقق خطابها في الكتابة والصورة هي ذات (فرد) تنتمي إلى “سنن ثقافي” ينتج علامات فالوجود الوحيد الممكن للعالم هو “الوجود المفهومي الذي يحول الأشياء إلى كيانات رمزية يتجاوز دلالاتها على نفسها لكي تتحول إلى سند لأبعاد إيجابية ومخيلية ورمزية، فالفرد في استعماله اللغة التي يفكر بواسطته أوداخلها لا يمكن الفكك من أسر “التسنيين الثقافي” لهذا يمكن القول “إن العلامات هي أداتنا الوحيدة في تنظيم التجربة وتبين موقعنا داخل كون لا يرحم، ولا يتعلق الأمر فقط باستعمال ملامات اللغة في التواصل بين الفرد والمجتمع في الزمان والمكان، صحيح إن الجسد هو ذاته في كل مكان ويخضع باستمرار لنفس الإكراهات الفيزيائية، إلا أن الأطراف المتحركة داخل هذا الجسد والإيماءات المتولدة عنها وكذا سجل الدلالات التي تستنبط منها ليست كونية وتختلف من مجتمع إلى آخر، استعمال لعلامات لغة تستثمرها الثقافة بمضامين قبلية، فاللغة ناقلة لقيم المجتمع الانتولوجية والثقافية وفيها يتجسد مخيالها القيمي Imaginaire Axiologique ذلك أن اللسان (اللغة) حسب ثنائية اجتماعية ونسق للقيم فهو “باعتباره مؤسسة لا علاقة له بالفعل الفردي، إنه تعاقدا جماعي لا ول للفرد أمامه ولا قوة، وهو باعتباره نسق من القيم يتكون من عناصر تشتغل في الآن نفسه باعتبارها ما يحل محل شيء ما” (ص47) في حين أن الكلام هو الاستعمال الفردي في تواصله مع أفراد المجتمع، فالكلام إجراء “يعود إلى الفرد وإلى قدرته على تحويل النسق إلى إجراء وتحويل الثابت إلى متغير وتحويل العلامة المفردة إلى خطاب، استعمال الفرد لعلامات لغته استعمال لعلامات المسكوك في الثقافة و “تحويل مطلق من الجماعي والعام والمجرد إلى الفردي والخاص والمحسوس”، ولأنه أداة فردي يضيف سعيد بنكراد “فهو يشير إلى قدرة الفرد على تحويل اللسان من نسق مجرد إلى كيان مرئي من خلال أفعال تحيينية، والإمساك بهذه الفردية يتم من خلال : 1- التأليف الذي من خلاله تستطيع الذات المتكلمة استعمال سنن اللغة للتعبير عن أفكارها. وبطبيعة الحال يتعلق الأمر هنا بما تسميه السيميائيات بإجراءات صوغ الخطاب (Discursivisation)، والذي يتكلم ويكتب أو يرسم يصوغ خطابا عبر علامات اللغة التي يتكلمها في الزمان والمكان (7) ضمن حدود يرسمها النص الثقافي للمجتمع، وإرغامات تحد من حركة التأليف والحرية، بل إنها أيضا “محاضرة بالإكراهات ذات الطابع الاجتماعي والديني والأخلاقي، والتي على الرغم من وجودها خارج فإنها تمارس ضغوطا على الذات المتكلمة وتفرض عليها انتقاء وتركيبا للوحدات والمقامات وفق مقتضيات المقامات والسياقات المتنوعة (ص47). إن انتقاء الدال للتعبير عن مدلول لا يمكنه تفسيره إلا بمعرفة أن الدال “صورة سمعية مشتقة من كيان صوتي، أو هي تمثيل طباعي (في حالة وجود كتابة)، متوالية من الأصوات أراد لها الاستعمال الجماعي الناتج عن تعاقدا لا تعرف له بداية، أن تكون كيانا يحل محل شيء آخر، (ص50) فالدال له مميزاته فهو “نفسى وليس مادي، ومفروض على وعي مستعمله، (ص5) والعلاقة الرابطة بين الدال والمدلول هي من طبيعة اعتباطية والاعتباطية في مفهومها الإدني هي غياب منطق عقلي يبرر الغحالة من دال إل مدلول، (ص51)، فلا وجود لعناصر داخل الدال “تجعلك تنتقل آليا إلى داخل المدلول (ص51). خاصة إذا ما نحن علمنا أن معنى الدال في الثقافة الغربية هو تاريخ معنى وصيرورته اتخذ من الاستعارة مرتكزا للوجود (8) إن الإعتباطية القائمة بين الدال والمدلول تشير، “في مفهومها الأقصى إلى الطابع الثقافي الذي يحكم الظواهر المكونة للتجربة الإنسانية في كليتها، فإذا كانت الثقافة هي نقيض الطبيعة، فإن الاعتباطية هي طريقة أخرى للمتول، فإن الثقافة هي ما يحدد الإضافات التي جاء بها التمدن وما خلقته الرغبة في التخلص من المحايث والاستعانة بالمكتسب” (ص52). ولكن ماذا عن الاستعمال الذاتي لعلامات اللغة خاصة في ميدان الإبداع؟ هذا سؤال ثقافي مشروع، خاصة، إذا ما نحن علمنا بأن الكتابة (والإبداع الفني بشكل عام) فعل اختلاف ونسق مندمج ثانوي يخترق الحدود التي يرسمها “النص الثقافي” أما أفراد المجتمع في تداولهم واستعمالهم لعلامات اللغة من أجل التواصل (9)، ومن هنا

تكمُن أهمية مفهوم “السيميويزيس” (أو السيموز) Semiosis فاعتباره مفهوما محوريا في سيميائيات الثقافة بحكم أنه يشير إلى عملية التدليل القائمة على إنتاج المعنى من طرف الذات في تجاوزها لثبوتية المعنى المسكوك القائمة بين الدال والمدلول.

السيميويزيس إذن تأكيد للذات كانا -هنا- الآن في إنتاجها للمعنى وعلى خلاف دوسوسير في تمييزه داخل العلامة بين دال ومدلول يرى عالم اللغة الأمريكي شارل ساندروس ((Peirce 1914-1839)) في صقله لمفهوم السيميويزيس، إن العلامة هي الوجه الآخر لإيوانيات الإدراك لذا لا يمكن تصور سيميائيات مفصولة عن عملية إدراك الذات والآخر إدراك “الأنا” وإدراك العالم الذي تتحرك داخله هذه الأنا” (ص60)، فالتجربة الإنسانية تشغل بكافة أبعادها كمهد للعلامات : لحياتها ولنموها ولموتها أيضا، كما أنها تشغل أيضا كمصدر لسلطة المعنى المشترك “فلا شيء يفلت من سلطان العلامة ولا شيء يمكن أن يشغل خارج نسق يحدد له سمكه وطرق إنتاجه لمعانيه ولا وجود لشيء يخلق حرا طليقا لا تحكمه حدود ولا يحد من نزواته كنسق، (ص60) وهو المسؤول أيضا عن إقامة العلاقة القائمة بين هذه المفاهيم الثلاثة أنه “سيرورة يشغل من خلالها شيء ما كعلامة ويستدعي استيعاب الكون من خلال ثلاث مستويات ما يحضر في العيان وما يحضر في الأذهان وما يتجلى من خلال اللسان” (ص61)، فإذا كان الماثول يشغل كأداة نستعملها في التمثيل لشيء آخر فإن “الموضوع هو ما يقوم الماثول بتمثيله سواء كان هذا الشيء الممثل واقعا أو متخيلا أو قابلا للتخييل أو لا يمكنه تخيله على الإطلاق” أما المؤول فيعتبر “ثالث عنصر داخل نسيج السيميويزيس”، وهو عمادها وبؤرتها الرئيسية إذ أنه يشكل التوسط الإلزامي الذي يسمح لماثول بالإحالة على موضوعه وفق شروط معينة” (ص67). يميز بورس في إطار مستويات الدلالة بين مؤولين، هو المعنى المباشر الذي يفهم من العلامة، فالمؤول الديناميكي يؤسس على أنقاض المؤول المباشر ولا يمكن أن يوجد إلا من خلال وجود الأول، فيتخلص من المعنى المباشر لينطبق نحو آفاق جديدة تضع الدلالة داخل سيرورة اللامنتهي” (ص70). السيميويزيس (أو التدليل) دينامية الإنتاج داخل ثبات معنى العلامة المسكوكة، وهي دعوة للبحث أيضا في أصول الحوار القائم بين الفرد وعلامات الجسد الاجتماعي، ولعل هذا ما دفع سعيد بنكراد إلى القول وهو يقرأ “ألبوم” المصور والمخرج السينمائي المغربي داود أولاد السيد، بأن هذا الأخير “كان يعرف بالضبط جوهر ما هو مقبل على إنجاز، لقد كان يشغل وفق تصور دقيق وواضح” في هذه الحال يتحول داود أولاد السيد إلى ذات الاختلاف التي تستعمل علامات مستثمرة بقيم مسكوكة في المخيال الجمعي ليتسلل خفية، عبر الكاميرا، بين تلك العلاقة الرابطة بين الدال والمدلول في الزمان والمكان. كما هو الشأن بالنسبة لصورة المرأة المسنة التي تجلس في الواجهة الأمامية للصورة على أرائك تقليدية ويدها تلتقيان حول البطن وفي وضع يحيل إيقنوغرافيا على الاستسلام الرهيب والتخلي عن المقاومة ومجابهة المصير، عيناها مصوبتان إلى أعلى حيث يوجد الرجل واقفا في الواجهة الخلفية للصورة وراء شباك غليظ للنفاذة وعيناها تطلان عليها من عل (ص119)، فأمام هدوء واستسلام المرأة، وهو هدوء واستسلام تحول مع مرور الزمن في الثقافة العربية المحافظة إلى حنين ورحمة وتسامح، يقف الرجل في المقابل خلف الشباك المسيح بأسلاك في عينيه أمارة التملك والحركة (ص119)، إنها صورة تكشف عن التوافق الاستبدادي بين المذكر والمؤنث حيث يتم توزيع كل شيء في الصورة وفق موقع كل منهما داخل صرح الفضاء الاجتماعي” (ص119).

فإن انتقائه لهذه العلامة يخضع لقراءته الخاصة، إذ يحول هذه العلامات إلى حكايات في الزمان والمكان تحكي اختلافها كمحكيات، فالشخصية هي قصو محتملة هي قصة حياتها 10، ويتجلى في هذا الصمت الذي يخيم على الشخص داخل قدامة المكان والزمان، لكنه أيضا صمت مغلق بتأثير اللحظة عندما تلتقي عين وذاكرة المتلقي “المشاهد” بما يحدث داخل الصورة ليلمع بريق الاختلاف في المسافة المظلمة الفاصل بين الدال والمدلول حيث يغيب الاختلاف (اختلاف المعنى) كممكن لتتحول الكاميرا إلى مؤول ديناميكي يحدث نوعا من الارتعاشة السيميائية في عمق المعنى المباشر الذي يحيل عليه مدلول الدال (المرأة) في المخيال الأخلاقي للذاكرة الجماعية، فعناصر الصورة، باختراقها لأحادية المعنى القائمة بينهما تعاقديا ومواضعة، لينفتح بذلك سؤال الاختلاف على ممكن ثقافي مغيب يجعل الصورة تنتج في تلك المسافة الفاصلة بين الدال والمدلول “الإنساني الغريب” وفي ذات الوقت السجل الأيقنوغرافي القادر على استيعابه، صورة لمغاربة في وضع خاص وبمنظرة خاصة وبغاية خاصة، خلاصة: